ملامح المجتمع الفارسى

فى

كتاب البخـــلاء

دكتور

د / عمر عبد المعبود عبد الرحمن

أستاذ الأدب والنقد المساعد

في كلية اللغة العربية بأسيوط

ملامح المجتمع الفارسي في كتاب البخلاء

تمهيد :

الواقع أن العلاقة بين الأمتين العربية والفارسية بعيدة الغـــور في جذور التاريخ فهي وإن تأرجحت بين مد وجزر في الجاهلية ، فقد أخذت تتوطد وتقوى بعد أن دخل الفرس في دين الله أفواجا ، وبعد أن تعانقت الأمتان تحت شعار " الله أكبر " في ظلال دستور الإسلام وكتابه الخالد : القرآن الكريم .

نعم هناك وسائل اتصال وضروب تأثير وتأثر بـــين العـــرب والفرس سواء في الجاهلية أو الإسلام، لكن تلك الصلات والعلاقات كانت أصلب وأقوى في كنف الإسلام ، مما جعل تـــأثير الفـــرس في العرب حينئذ أوسع وأعمق منه في الجاهلية ، كما أن آثار العرب في الفرس لم تكن تقل عما نقلوه منهم،إن لم تزد عليه شمولا وعمقا وسعة.[1]

ولست في حاجة إلى الإسهاب في الحديث عـــن هاتيـــك العلاقات والصلات التي كانت قائمة بين العـــرب والفـــرس في الجاهلية والإسلام ، فأخبارها مثبوتة في أمهات كتـــب التـــراث الإسلامي والعربي ، وإنما الذي أود الإشـــارة إليـــه أن العـــرب والفرس بعد الإسلام تمازجا تمازجاً قويا في نواح كـــثيرة ســـواء أكانت اجتماعية أو ثقافية أو سياسية وغيرها ، وبلغ هذا التمازج

---

[1] راجع تيارات ثقافية بين العرب والفرس . د / أحمد الحوفي ص ٤ .

ذروته بعد أن آلت مقاليد الحكم في الدولة الإسلامية إلى العباسيين سنة ١٣٢هـ .

فمعلوم مما سجله التاريخ أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ، وأن الفرس تقلدوا أعلى المناصب فيها ، وبسطوا سلطانهم عليها ، يقول أ / أحمد حسن الزيات :

" أما الدولة العباسية فقد اصطبغت بصبغة فارسية ، لأن الفرس هم الذي أوجدوها وأيدوها ، فاتخذت قصبتها بغداد أقرب الأمصار إلى بلادهم ، وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة فاستقلوا بشئونها ، واستبدوا بأمورها وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعا بصاع ، فضعفت العصبية العربية ، وعلا صوت الشعوبية ، ونتج من ذلك دخول العناصر الفارسية في تكوين الدولة ، وتمازجهم بالتزاوج والتناسل ، واختلاط المدنية الآرية بالمدنية السامية ، ولكل منهما لغة وأخلاق وعادات أثرت في الأخرى " . (١)

وهذا ما يؤكده د / شوقي ضيف حيث يقول : " كان تحول الخلافة من دمشق إلى بغداد على سواعد الجيوش الخراسانية إيذانا بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية للدولة العباسية ... وقلما نجد للعباسيين

---

(١) تاريخ الأدب العربي ص ١٥٣ .

وزيرا غير فارسي ، وهو شيء طبعي إذ كانوا هم الذين يستأثرون بشئون الخلافة ، ويرقون إلى أعلى المناصب ، وقد أحكموا للعباسيين هذا النظام وصاغوه صياغة على قوانينه الساسانية " . (١)

والدكتور الحوفى يقول : " فلما جاء العصر العباسي علا صوت الفرس ودوى ، إذ اتسع المجال أمامهم واطمأنوا إلى حريتهم المكفولة ، واستباحوا تسامح الدولة ، واستمتعوا بنفوذ عظيم في قصور الخلفاء ودواوين الحكام ، بل إن الوظائف الكبار كانت مقصورة عليهم ، وكان المأمون يؤثرهم جهرة ويشك في ولاء العرب له " . (٢)

ومن أكثر المدن التي استوطنها الفرس وأثروا فيها البصرة وبغداد ، يقول د / طه الحاجري : " لقد أحس الفرس في البصرة بذاتيتهم وكيانهم المستقل فشاركوا في الحياة السياسية مشاركة فعالة ، إلى جانب ما كان لهم من الأثر الخطير في الحياة الاقتصادية التي هي قوام هذه المدينة " . (٣)

---

(١) العصر العباسي الأول ص١٩ ، ٢٣ ، وراجع : ضحى الإسلام . أ / أحمد أمين ١٨/١ وما بعدها .

(٢) الجاحظ ، د / أحمد محمد الحوفي ص ١٢ .

(٣) الجاحظ حياته وآثاره ص ١١٦ .

وإذا كان هذا هو حال الفرس في البصرة ، فإن حالهم في بغداد لم يكن يقل عن ذلك ، فقد توافد الفرس عليها وانتشروا فيها واتصلوا بالعرب واستعربوا وتزاوجوا وتعلموا العربية ، وحذقوها ، وشرقت قصور الخلفاء والأمراء بهم من رجال ونساء كما غص الجيش بهم حتى إن الفضل بن يحيى البرمكي اتخذ جنودا من خراسان سماهم العباسية ولاءهم لبني العباس بلغ عددهم مائة ألف ، وقدم منهم إلى بغداد عشرون ألفا .[1]

ويصف د / خفاجي : سيطرة الفرس على معالم الحياة في بغداد فيقول : " والمدينة فارسية الطابع والنظام " .[2]

وقد أتقن الفرس اللغة العربية ، خاصة بعد أن أصبحت اللغة العربية اللغة القومية للفرس نحو ثلاثة قرون [3] ، كما أنهم أبدعوا وأجادوا في العلم والدين والأدب خاصة في العصر العباسي حيث أصبح " جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم" .[4]

---

(١) الجاحظ . د / أحمد محمد الحوفي ص١٠، ١١ .

(٢) أبو عثمان الجاحظ د / خفاجي ص ١٧ .

(٣) دراسات في الأدب المقارن . د / محمد عبد المنعم خفاجي ٩٦/٢ وراجع العصر العباسي الأول د / شوقي ضيف ص ٩١ وما بعدها .

(٤) العصر العباسي الأول د / شوقي ضيف ص٩١ .

نحن إذن أمام مجتمع فارسي اندمج في البيئة العربية إبان حكم العباسيين ، وسيطر على مقاليد الأمور ، وأصبح له تواجد مؤثر في كل موقع : في القصر ، في الجيش ، في المسجد ، في السوق ، في محافل العلم والأدب ، في الحياة العامة والخاصة ، وفي كل مجالات الحياة .

وبلغ من تغلغل الفرس في المجتمع العباسي أن العلماء في حلقات الدرس كانوا يضطرون أن يفسروا كتاب الله الجليل بلغتهم حتى يفهمون المعنى فهما واضحا وذلك قبل أن يتقنوا العربية ، وهذا موسى بن سيار الأسواري " وكان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدري بأي لسان هو أبين " .[1]

ولاشك أن هؤلاء الفرس الذين وفدوا إلى المجتمع العربي واندمجوا فيه جاءوا حامليهن معهم عاداتهم وتقاليدهم وملامح مجتمعهم ، وقد بلغ من نفوذهم أن انتشرت عاداتهم ونظمهم في

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٣٦٨ ، وانظر العصر العباسي الأول د/ شوقي ضيف ص ٩٢ .

المجتمع العربي ، حتى إن الخلفاء أنفسهم تشبهوا بهم في نظم الحكم وسياسة الرعية والاحتجاب عن الشعب ، وزاعت تقاليدهم في الملابس والغناء والمجون والمحافل والأعياد ، فاحتفل العباسيون بعيد النيروز وعيد المهرجان ، والأول يوافق أول الربيع ، والثاني يوافق أول الخريف ، وكان لهذين العيدين شأن عظيم عند الفرس ، ثم حاجاهم العرب في ذلك . [1]

وهكذا أصبح للفرس في المجتمع العربي مكانة لا تدانى ، بعد أن بسطوا نفوذهم ، وسيطروا على المناصب العليا في الدولة وتحكموا في الاقتصاد والتجارة ، ونبغوا في العلوم والمعارف ، وتفقهوا في الدين ، وزادوا في مخالطة العرب بالتزاوج والسكنى فانتشرت عاداتهم وظهرت في المجتمع وطباعهم وتقاليدهم .

ويعد الجاحظ (١٥٠ ــ ٢٥٥هـ) من أبرز الكتاب والأدباء الذين عاشوا في ذروة الخلافة العباسية وتوهجها ، وكان لمولده في البصرة ونشأته وإقامته فيها أثر كبير في معرفته بالفرس، حيث كانت البصرة تموج بالكثير منهم ، لدرجة أنهم كانوا يسيطرون على الحالة الاقتصادية فيها [2] ، ومن ثم فقد أتيح للجاحظ أن يعايش الفرس عن قرب ، وأن يخالطهم على أرض

---

(١) الجاحظ . د / الحوفي ص ١٠ ، وراجع ضحى الإسلام ٢/ ٨٣ وما بعدها .

(٢) أبو عثمان الجاحظ . د / حجاجي ص ٤٥ .

الواقع فشاهد نفوذهم ، وأدرك بفطنته نزعتهم الشعوبية ورد عليهم مفنداً مزاعمهم ومطاعنهم على العرب ، كما اطلع على ثقافتهم وتأثر بها [1] ، وعرف من خلال التجربة الواقعية والمعايشة طباعهم وعاداتهم المتأصلة فيهم .

والواقع أن الجاحظ قد تحدث عن الفرس كثيراً في كتبه خاصة الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء ، مشيرا إلى صفاتهم وملامحهم الاجتماعية وموردا كثيراً من أخبارهم ، ففي الحيوان مثلا ، يشير إلى أن الفرس يميلون إلى الطعام البارد الحلو ، وأنهم كانوا يأكلون الفأر والضفادع بعد أن تنقع في الخل والملح . [2]

وفي البيان والتبيين ينعتهم بالبلاغة والبيان فيقول : " وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس ، وأخطب الفرس أهل فارس ، وأعذبهم كلاما وأسهلهم مخرجا وأحسنهم دلا ، وأشدهم فيه تحكما أهل مرو ، وأفصحهم بالفارسية الدرية أهل قصبة الأهواز... " . [3]

أما في البخلاء فقد أورد الجاحظ كثيراً من نوادرهم ، وخصهم بالعديد من القصص والنوادر التي أوردها في سياق

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٨ ــ ١١١ .

(٢) راجع الحيوان ٥/ ٢٥٣ ، ٥٣٠ .

(٣) البيان والتبيين ٣ / ١٣ .

حديثه عن البخل والبخلاء وقد أحصيت له في هذا المقام أكثر من خمسة وعشرين خبراً في هذا السياق ، وقد لاحظنا من خلال قراءاتنا لكتاب البخلاء أن هذه النماذج التي أوردها الجاحظ عن الفرس تحمل إلى جانب البخل بعض ملامح مجتمعهم وتظهر كثيرا من طباعهم وعاداتهم ، ومن ثم جاء هذا البحث لبيانها والوقوف على معالمها .

وليس من سبيلنا في هذا البحث الحديث عن كتاب البخلاء أو سبب تأليفه ، وإنما قصدنا إلى البحث في البخلاء عن ظلال وملامح غير التي كان يهدف إليها الجاحظ وألف من أجلها كتاب البخلاء ، هذه الظلال تتمثل في : ملامح المجتمع الفارسي التي وجدناها في ثنايا قصصه الذي أورده عن الفرس ، حيث جمع من نوادرهم ما فيه بخل وفوق ذلك ، ومن ثم فقد وقعنا من خلال هذه القصص التي أوردها الجاحظ في بخلائه على بعض الملامح الاجتماعية للفرس ، فالمؤلف في أي عصر وزمان يقصد إلى شيء يثبته ويأخذ معه وفي طريقه أشياء أخرى لم يكن ملتفتا إليها ولا يقصدها ، ولكنها موجودة في صفات الناس ، وتشي بملمح من ملامح المجتمع ، وهذا ما فعله الجاحظ فالهدف الأساسي من الكتاب : البخل والبخلاء ، لكن ما أورده من

قصص مع أنه في البخل إلا أنه يحمل بين طياته عادات وتقاليد وملامح اجتماعية كانت سائدة في المجتمع .

وهناك دراسات عدة دارت حول الجاحظ وكتبه ومنها كتاب البخلاء ، ومن الباحثين من ذكر أن هذا الكتاب وصف جيد للحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول تناول أحوال الأفراد والأسر ودخائل المنازل ، وكشف عن كثير من العادات والأخلاق [1] ومنها من قام بدراسة الجاحظ وكتابه وذكر أنه تصوير للمجتمع العباسي [2] ومنهم من ذكر أنه صورة شعبية لحياة المجتمع العربي في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة [3] ، وهذا صحيح ، لكن المجتمع العباسي لم يكن قاصراً على العرب وحدهم آنذاك ، فهناك جنسيات كثيرة دخلت في دين الله أفواجا وخالطت العرب ، أهمها الفرس ، وهؤلاء الفرس وفدوا بعاداتهم وتقاليدهم الفارسية إلى المدن العربية واستوطنوها وعاشوا فيها ، وبقيت لهم خصائصهم وعاداتهم التي ما خفيت عن نظر الجاحظ الذي التقى بهم وعايشهم ولاحظ عليهم هذه

---

[1] راجع : الجاحظ د / الحوفي ص ٧٢ ، ٩٥ ، والجاحظ ومجتمع عصره . جميل جبر ص ٧ ، وأبو عثمان الجاحظ . أحمد الطويلي ص ٢٣ .

[2] البخلاء للجاحظ وتصويره للمجتمع العباسي . د / أحمد منصور نفادي ص ١٥١ .

[3] أبو عثمان الجاحظ د / خفاجي ص ٣٠٩ .

العادات وتلك الملامح التي لاحظناها في ثنايا قصصه عن البخلاء من أهل الفرس ، وهذا هو الذي أردته ورصدته في هذه الدراسة.

ومن ثم فالبحث لا يقصد إلى دراسة ملامح المجتمع في العصر العباسي كله ، وإنما إلى دراسة جزء منه وهو ملامح الفارسيين ، على أساس أنهم مجتمع طارئ على المجتمع الإسلامي لهم عاداتهم وتقاليدهم التي حملوها معهم ، ومع أنهم اندمجوا في المجتمع العربي ، إلا أنهم بقوا على عاداتهم التي وفدوا بها إلى البلدان والأمصار العربية .

وقد حاولت قدر الإمكان أن أصنف القصص تحت ملامح تناسبها ، وقمت بالتعليق عليها شرحا ونقداً وذلك على النحو التالي :

الفرقة وعدم الألفة :

أول ما يطالعنا من ملامح الفرس في كتاب البخلاء : الفرقة وعدم الألفة فيما بينهم ، خاصة عند الأكل ، حيث يميلون إلى الوحدة والتفرد ، وهناك أكثر من نادرة أوردها الجاحظ في البخلاء تبرهن على وجود هذه الصفة ، وهذه النوادر وردت في البخلاء متفرقة وبغير تنصيص ، ومن خلالها يمكننا أن نستشف هذه الصفة فيهم .

يقول الجاحظ عن أهل خراسان : ورأيت أنا حمارة منهم، زهاء خمسين رجلا ، يتغدون على مباقل بحضرة قرية الأعراب في طريق الكوفة ، وهم حجاج . فلم أر من جميع الخمسين رجلين يأكلان معا ، وهم في ذلك متقاربون ، يحدث بعضهم بعضا ، وهذا الذي رأيته من غريب ما يتفق للناس .[1]

فالتفرق وعدم الألفة كما يتضح من النص سمة غالبة في أهل الفرس ، ولولا أنها صفة شائعة في ذلك المجتمع الفارسي ومشهورة ما كان رصدها الجاحظ في كتابه وألمح إليها .

خمسون رجلا يجلسون لتناول طعام الغداء وكل واحد منهم يأكل منفرداً ، كيف ذلك ؟ ألا يوجد من بينهم رجلين يأكلان معا ، إنها لظاهرة غريبة وشاذة ، فقد جرى العرف أن الرحلات تحبب التجمع وتساعد على الألفة والمشاركة خاصة في الأكل ، فكيف يصدر منهم هذا السلوك المشين ، خاصة وأنهم متقاربون ، يعرف بعضهم بعضا ، فهم أبناء منطقة واحدة ، ناهيك عن أنهم في رحلة إيمانية ، ما أسماها وما أجلها ، وهي رحلة الحج ، هذه الشعيرة التي تفرض عليهم أن يؤثر كل واحد منهم غيره على نفسه ، ويجود بما يملك لأخيه المسلم ، وهذا ما يحدث فعلا ، فالذين أدوا هذه الفريضة لابد أنهم لمسوا روح

---

[1] البخلاء ص ١٨ .

التآلف والإيثار والحرص على أن يقدم كل واحد للآخر أجود وأطيب ما يملك من مأكولات ومشروبات ناهيك عن الأكل الجماعي الذي شاهدناه ويشاهده الجميع سواء في أماكن إقامة الحجاج في الفنادق ، أو أماكن تجمعهم في المشاعر المقدسة أو أثناء رحلة السفر ذهابا وإيابا ، لكن هؤلاء الفرس يبدو أنهم جبلوا على ذلك ، وأن هذه الصفة متأصلة في نفوسهم وأنهم لا يستطيعون عنها حولا ، ولهذا سلكوا هذا المسلك .

ويؤكد هذه الصفة فيهم قول الجاحظ — أيضا — وقال أبو نواس : كان معنا في السفينة — ونحن نريد بغداد — رجل من أهل خراسان ، وكان من عقلائهم وفقهائهم ، فكان يأكل وحده. فقلت له : لم تأكل وحدك ؟ قال : ليس عليَّ في هذا الموضع مسألة : إنما المسألة على من أكل مع الجماعة ، لأن ذلك هو التكلف ، وأكلي وحدي هو الأصل وأكلي مع غيري زيادة في الأصل .[1]

إنها قصة حقيقية مستمدة من الحياة الواقعية ، وحدثت من مَنْ ؟ من خراساني يتصف برجاحة العقل ورزانته ، بل وفقيه من الفقهاء ، ومع ذلك فهو يرى أن الأصل في الأكل هو التفرد،

---

[1] البخلاء ص ٢٤ .

ويلقى باللائمة على من يأكل مع الجماعة ، ويرى أن ذلك هو التكلف بعينه .

ومن النماذج الدالة على أن الفرس لا يميلون إلى مشاركة أحد لهم في الأكل ما ذكره الجاحظ رواية عن إبراهيم بن السندي عن هذا الشيخ الخراساني الذي كان يجلس في بعض المواضع يتناول الطعام إذ مر به رجل فسلم عليه ، فرد السلام ، ثم قال : هلم عافاك الله ، فلما نظر إلى الرجل قد انثنى راجعا ، قال له : مكانك ، فإن العجلة من عمل الشيطان ، فوقف الرجل،فأقبل عليه الخراساني وقال : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن أتغدى . قال : ولم ذاك ؟ وكيف طمعت في هذا ؟ ومن أباح لك مالي؟ قال الرجل : أوليس قد دعوتني ؟ قال : ويلك ، لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام . وكان يجب عليك حين قلت لك هلم ، أن تجيب أنت فتقول : هنيئا .فيكون كلام بكلام ، فأما كلام بفعال وقول بأكل فهذا ليس من الإنصاف ، وهذا يخرج علينا فضلا كبيرا ، قال : فورد على الرجل شيء لم يكن في حسابه ، فشهر بذلك في تلك الناحية ، وقيل له : قد أعفينا من السلام ومن تكلف الرد . قال: ما بي إلى ذلك حاجة ، إنما هو أن أعفي أنا نفسي من " هلم " وقد استقام الأمر .[1]

---

[1] البخلاء ص ٢٥ ، ٢٦ .

حقا إنها لفلسفة غريبة وعجيبة في الدعوة للطعام . وفي الهروب من تحقيق الدعوة . لكن هذه هي طبيعة الفرس ، وكما يقولون : الطبع غلب التطبع ، فالرجل حاول أن يتغلب على طبعه فدعا الرجل للمؤاكلة ، لكن سرعان ما تراجع عن دعواه ، وعاد إلى رشده وصوابه وطبيعته وسجيته وفطرته فمنع الرجل من الاقتراب من الطعام، إنه كلام فقط وإجابته لابد أن تكون من جنس الكلام ، أما أن يكون كلام بفعال وقول بأكل فهذا مالا يجوز بل يعد من الجور وعدم الإنصاف ، ولعل البخل — أيضا — هو الذي جعله يتراجع عن دعواه .

ضعف روابط الصداقة :

ومن ملامح المجتمع الفارسي في البخلاء ضعف روابط الصداقة فيما بينهم ، فالمادة هي الأساس في معاملاتهم والمصلحة الفردية تفوق مصلحة الآخرين ، فالصداقة شيء والمعاملة بينهم شيء آخر . ومهما كانت هذه الصداقة قوية فإنها تتلاشى خاصة عند المؤاكلة أو المصلحة الفردية .

ومن قصص الجاحظ في هذا السياق قوله : حدثني مويس ابن عمران قال : قال رجل خراساني لصاحبه — وكانا إما متزاملين وإما مترافقين : لم لا نتطاعم ؟ فإن يد الله مع الجماعة وفي الاجتماع البركة ، ومازالوا يقولون : طعام الاثنين يكفي الثلاثة ، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة . فقال لصاحبه : لولا أنك

أنك آكل مني لأدخلت لك هذا الكلام في باب النصيحة . فلما كان الغد ، وأعاد عليه القول ، قال له : يا عبد الله معك رغيف ومعي رغيف ، ولولا أنك تريد الشر ما كان حرصك على مؤاكلتي تريد الحديث والمؤانسة ؟ اجعل الطبق واحدا ، ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه . وما أشك أنك إذا أكلت رغيفك ونصف رغيفي ستجده مباركا . إنما كان ينبغي أن أكون أجده أنا لا أنت .[1]

على عادة الجاحظ في كثير من قصصه حيث يبدأ القصة بالسند بقوله عن فلان ، أو يخبر أن شخصا جاءه وأخبره ، فهو بذلك ارتبط مع الرواية الذي سيطر على كتابات الأقدمين تقليدا للحديث النبوي الشريف هذا أمر ، والأمر الآخر أنه يخشى أن يعترض عليه القراء بتكذيب ما يقول ، فتتصل من هذه التهمة وألقاها على الراوية ، وهو بذلك يسبغ على عمله الصدق ليقنع من يقرأ وينفذ إلى مشاعره ليتأثر ويتأسى ويقلع عن بخله إن كان بخيلا ، أو ينفر من البخلاء بصفة عامة .

والقصة التي معنا جمعت بين رجلين تربطهما صداقة قوية وحميمة ، وهما إما متزاملين أو مترافقين في مكان ما ، ومع ذلك فهما وقت تناول الطعام يجلس كل واحد منهما منفرداً ليأكل ما

---

[1] البخلاء ص ١٩ .

مده من طعام ، ولك أن تتخيل صورة كل واحد منهما وهو يجلس على حده ليأكل طعامه . أين الصداقة التي تجمع بينهما ، وإذا كان هذا شأن الأصدقاء ، فما ظنك بغير الأصدقاء .. ومن هنا نقول إن هذه السمة ملمح عام من ملامح المجتمع الفارسي .

وقريب من هذه القصة ما يرويه الجاحظ — أيضا — حيث يقول : وزعموا أن جماعة من أهل خراسان ربما ترافقوا أو تزاملوا ، فتناهدوا وتلازقوا في شراء اللحم ، فإذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ ، وأخذ كل إنسان منهم نصيبه فشكه بخوصة أو بخيط ، ثم أرسله في خل القدر والتوابل . فإذا طبخوه تناول كل إنسان خيطه وقد علمه بعلامة ثم اقتسموا المرق ، ثم لا يزال أحدهم يسل من الخيط القطعة بعد القطعة حتى يبقى الحبل لا شيء فيه ، ثم يجمعون خيوطهم ، فإن أعادوا الملازمة أعادوا تلك الخيوط ، لأنها قد تشربت الدسم فقد رويت ، وليس تناهدهم من طريق الرغبة في المشاركة ، ولكن لأن بضعة كل واحد منهم لا تبلغ مقدار الذي يحتمل أن يطبخ وحده ، ولأن المؤنة تخف أيضا والحطب والخل والثوم والتوابل ، ولأن القدر الواحدة

أمكن من أن يقدر كل واحد منهم على قدر ، وإنما يختارون السكباج لأنها تبقى على الأيام ، وأبعد من الفساد .[1]

فهذا ملمح من ملامح المجتمع الفارسي يتمثل في مشاركة جماعة من أهل خراسان مترافقين أو متزاملين في شراء اللحم وتقسيمه ، كما يحدث في مجتمعاتنا اليوم حيث تشترك مجموعة من الأصدقاء في شراء " ماشية " مثلا ويقتسمونها بعد الذبح فيما بينهم ، إلا أن هؤلاء الخراسانيين عند الأكل ينحون الصداقة جانبا، فهم يشتركون في شراء بعض اللحم ، إلا أنهم يقومون بتقسيمه قبل الطهي فيما بينهم ، ويضع كل واحد منهم نصيبه في خيط ، ويعلمه بعلامة ، حتى لا يأخذ أحد خيطا غير خيطه ، ثم يقومون بطهي اللحم جميعا في إناء واحد ، ثم يأكل كل واحد منهم من نصيبه حتى يفرغ منه ، وإذا ما عاودوا الطبخ مرة أخرى عادوا إلى مثل ما فعلوا . علام كل ذلك ؟ ماداموا مترافقين ومتزاملين أما كان الأجدر بهم أن يقوموا بطهي الكمية مجتمعة ثم يتناولون الطعام سويا كما هو الشائع والمشهور في المترافقين أو المتزاملين ، لكن أنى لهم ذلك مادامت أواصر الصداقة بينهم ضعيفة ، وقد فطروا على حب التوحد والتفرد

---

[1] البخلاء ص ٢٣ . والسكباج مرق يعمل من اللحم والخل ، والكلمة معربة من الفارسية . البخلاء ٢٨٨ .

[illegible]

جماعة في الأكل ، ويقرر [illegible] كلاهم أن يشترك [illegible]

في إناء واحد لولا حرصهم على [illegible]

وليس الأمر قاصراً عند الفرس على ناحية [illegible]

في الأكلة فقط ، بل هناك ما هو أدهى من ذلك وأمر ، يقول

الجاحظ : وزعم أصحابنا أن خراسانية ترافقوا في منزل ،

وصبروا على الارتفاق بالمصباح ما أمكن الصبر ، ثم إنهم تناهدوا

وتخارجوا ، وأبى واحد منهم أن يعينهم ، وأن يدخل في الغرم

معهم ، فكانوا إذا جاء المصباح شدوا عينه بمنديل ، ولا يزال ولا

يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح ، فإذا أطفؤوه

أطلقوا عينيه .(1)

مجموعة من أهل خراسان اضطرتهم الظروف للإقامة في منزل واحد ، فاتفقوا فيما بينهم على أن يشتركوا في دفع ثمن زيت المصباح نظير الاستفادة من إضاءته ، إلا أن واحداً منهم رفض المشاركة وامتنع عن الدفع ، وهم يدركون أنه لا مأوى له غير هذا المنزل ، فماذا يفعلون ؟ لابد من حيلة تحول بين هذا الذي امتنع عن المشاركة وبين الاستفادة من نور المصباح ، فما كان منهم إلا أن يضعوا منديلا على عينيه مادام المصباح مشتعلا ، فإذا ما أطفأوه رفعوا العصابة من على عينيه .

(1) البخلاء ص ١١

[illegible]

لا شك أنه سلوك غريب [illegible] في مكان واحد ، ومن الواضح [illegible] به معهم ، ولا غرابة [illegible] ولا يستطيعون [illegible] معه ، ومن ثم [illegible] الاستفادة بالمصباح ، ولا ندري إن كان إطفاء المصباح عند النوم عادة متبعة عندهم كما هي عند كثير من الناس ، أم أنهم فعلوا ذلك توفيراً للزيت واقتصاداً في النفقة .

الكــذب :

ومن ملامح المجتمع الفارسي في البخلاء : الكذب ، يقول الجاحظ : حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام قال : قلت مرة لجار كان لي من أهل خراسان : أعرني مقلاكم فإني أحتاج إليه . قال : قد كان لنا مقلى ولكنه سرق . فاستعرت من جار لي آخر . فلم يلبث الخراساني أن سمع نشيش اللحم في المقلى ، وشم الطباهج (2) ، فقال لي كالمغضب : ما في الأرض أعجب منك . لو كنت خبرتني أنك تريده للحم أو لشحم لأسرعت إليك به ، إنما خشيتك تريده للباقلي ، وحديد المقلى يحترق إذا كان الذي يقلى فيه ليس بدسم ، [illegible]

(2) الطباهج : [illegible]

أردت الطباهج ، والمقلى بعد الرد من الطباهج أحسن حالا منه ، وهو في البيت .[1]

الإعارة عادة مألوفة ومعروفة في المجتمعات خاصة لدى الجيران ، وهذه القصة صورة مما يحدث بيننا اليوم في حياتنا الاجتماعية ، فالجار يأخذ من جاره ما يحتاجه ثم يقوم برده بعد الانتهاء من قضاء حاجته ، وهذا ما سكله إبراهيم بن سيار حيث طلب من جاره الخراساني أن يعيره مقلاه ، فما كان من الخراساني إلا أن يكذب ولا يقضي لجاره حاجته ، بل ويدعي أن مقلاه سرق ، فلجأ الرجل إلى جار آخر استعار منه المقلاة ، ولم يمض غير قليل حتى اشتم الخراساني رائحة شواء طيب منبعثة من دار جاره الذي كان يريد المقلاة ، فنهض مسرعاً متوجهاً إلى جاره وملامح الغضب تظهر على وجهه ، ثم قال له معاتبا ومعنفا : لماذا لم تخبرني أنك كنت تريد المقلى لشواء اللحوم إنما خشيتك تريده للبقوليات ، وكيف لا أعيرك إذا علمت أنك تريده للحوم،والمقلى بعد شواء اللحوم يكون أحسن حالا منه وهو في البيت. لاشك أنه تعليل غريب وسلوك مشين من هذا الخراساني الذي كذب على جاره وضن عليه بالإعارة ، حتى وإن كان هذا الجار يريد المقلى للبقوليات ، هل هذا مدعاة للكذب والإدعاء

---

[1] البخلاء ص ٢٣ .

بأن مقلاه سرق ؟ خاصة وأن ديننا الحنيف ينهانا عن الكذب ويدعونا إلى حسن معاملة الجار .

وإذا كنا قد لمسنا الكذب لدى رجل من عامة أهل الفرس فها نحن أولاء في النموذج التالي نلمسه لدى حاكم من حكامهم .

قال الجاحظ : حدثني محمد بن يسير عن وال كان بفارس، إما أن يكون خالدأخو مهرويه أو غيره ، قال :

بينا هو يوما في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب بجهده ، إذ نجم شاعر من بين يديه ، فأنشده شعرا مدحه فيه وقرظه ومجده ، فلما فرغ قال : قد أحسنت . ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ، ففرح الشاعر فرحا قد يستطار له ، فلما رأى حاله قال : وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع ؟

اجعلها عشرين ألف درهم ، فكاد الشاعر يخرج من جلده ، فلما رأى فرحه قد أضعف ، قال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ؟ أعطه يا فلان أربعين ألفا ، فكاد الفرح يقتله .

فلما رجعت إليه نفسه قال له : أنت — جعلت فداك — رجل كريم وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحا زدتني في

الجائزة ، وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر ، ثم دعا له وخرج .

قال فاقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهما ، تأمر له بأربعين ألف درهم ؟ قال : ويلك ! وتريد أن تعطيه شيئا ؟ قال : ومن إنفاذ أمرك بد ؟ قال: يا أحمق ، إنما هو رجل سرنا بكلام ، وسررناه بكلام ، هو حين زعم أني أحسن من القمر ، وأشد من الأسد ، وأن لساني أقطع من السيف ، وأن أمري أنفذ من السنان جعل في يدي من هذا شيئا أرجع به إلى بيتي ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ؟ ولكنه قد سرنا حين كذب لنا ، فنحن أيضا نسره بالقول ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذبا ، فيكون كذب بكذب وقول بقول ، فأما أن يكون كذب بصدق ، وقول بفعل ، فهذا هو الخسران المبين الذي سمعت به .[1]

هذه قصة تخالف المألوف عن الحاكمين ، فكلهم أو جلهم يستخفهم الطرب عند سماع المديح من الشعراء ، فيبذلون لهم من العطاء بقدر جودة شعرهم ، وحسن تأتيهم في المديح ، ولا يتراجعون أبدا عما قضوا به ، وقد يخرج شاعر من عندهم صفر اليدين لأنه لم يحسن القول لا في المدح ولكن في الشعر بجملة .

---

[1] البخلاء للجاحظ : ٢٦ ، ٢٧ .

ولكن هذا الحاكم لم يكن على غرار أحد بل هو فريد في نوعه ، وربما دفعه هذا التصرف البخل ، لأن الحاكمين حتى ولو لم يطربوا للشعر يطربهم أن يقول الناس عنهم إنهم كرماء ، فيبذلون بسخاء .

وهذا الوالي بينما هو مشغول بحسابه معزول عن الناس ، إذ اقتحم عليه خلوته شاعر مدحه فأمر له بالعطاء ، ولما بدا عليه الفرح الشديد أخذ يزيد حتى وصل عطاءه إلى أربعين ألف درهم،وظن الشاعر أنه سوف يحصلها ، ولكن الكاتب اعترض عند الوالي قائلا : إن هذا الشاعر كان يرضيه أربعون درهما فقط، فظهرت فلسفة عجيبة على لسان ذلك الوالي البخيل ، فهو أخذ من الشاعر كلاما أفرحه وأعطاه كلاما في المقابل أفرحه، وانتهى الأمر كل أخذ حقه ، وهذا لا يليق بالوالي ، لأنه أظهره بمظهر الكذب فوق البخل ، وعدم إنجاز الوعود ، والتراجع عن الأحكام ، وكل ذلك صفات تشين الحاكمين وتسقط هيبتهم .

والنص يشتمل على كثير من المفردات الموحية الدالة على مراد الجاحظ ، كقوله :

مشغول : تفيد أن هذا الوالي محصور في أمور الدنيا : المال وأشياء أخرى ، فأصبح معزولا لا يدور بخلده إلا هذين الأمرين.

إذ نجم : إذ فجائية : أي هذا الشاعر ظهر فجأة ولعل الوالي لم يفطن إليه في البداية لأنه مشغول ، ولكن لا ندري كيف تسلل هذا الشاعر ولم يمنعه أحد من الحجاب أو الحراس ، وإنما هي رغبة الجاحظ في إظهار المباغتة التي تم بها اللقاء بين الشاعر والوالي ، وهذا من شأنه أن يخرج الوالي من حالته التي حبس فيها نفسه إلى موقف لا يدري ماذا يفعل فيه ، لذلك لما سمع الشعر حكم للشاعر بجوائز متصاعدة ، وهذا يدل على اضطرابه من المفاجأة ، ولكن لما هدأ واستقرت الأمور بدأ يعالج الأمر بفلسفة ساقطة تجلب عليه العار والذم حين جعل الكلام في مقابل كلام .

يستطار له : تفيد أن الشاعر لم يكن متوقعا هذه الجائزة ، وأنه فرح بها إلى الدرجة التي تذهب العقل ، وهذا ما شجع الوالي على زيادة الجائزة .

وإن فرحك يتضاعف على قدر تضاعف القول : هذه جملة تكشف المخبوء وما أضمره الوالي في نفسه ، فالأمر عنده لا يتعدى أن يكون قولا يفرح ، وكلما زاد فرحه زاد هو في العطاء

الوهمي حتى أفصح عن ذلك عندما قال لكاتبه : إنما هذا رجل سرنا بكلام وسررناه بكلام .

فنحن أيضا نسره بالقول : المنتظر منه أن يقول ونحن نكذب عليه أيضا ، ولكنه خجل من أن ينطق بها وإن كان تصرفه أفصح وأبان ، لأن التقابل بين المعاني يقتضي ذلك .

وعلى كل فالبخل والكذب الذي تسبب فيه البخل إذا قبل من الأفراد العاديين على مضض لأنه منبوذ عند كل الناس فإنه لا يقبل من الولاة الذين فرضت عليهم وظائفهم رعاية المحكومين والاهتمام بأمورهم ومدهم بالأموال إذا اقتضى الأمر والصدق معهم فهذا حاكم لا مثيل له .

والجاحظ في كتابه يفهمنا من هذه القصة أنه لم يترك نوعية من أنواع الناس حاكمين وغير حاكمين إلا وعرض لسلوكياتهم ، فجاء كتابه متنوعا كأنه يتحدث عن الدنيا ومن فيها .

ومن النماذج الدالة على أن هذه السمة ملمح من ملامح الفرس ما أورده الجاحظ ــ أيضا ــ عن أهل مرو[1] ،حيث يقول :

---

[1] مرو : كبرى مدن خراسان ، تقع على نهر صغير يقال له المرغاب ، وهي على الطريق الذي يربط خراسان ببغداد . البخلاء ص ٢٨١ .

قال أصحابنا : يقول المروزى للزائر إذا أتاه ، وللجليس إذا طال جلوسه : تغديت اليوم ؟ فإن قال نعم ، قال : لولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب ، وإن قال : لا ، قال : لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح .

فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير .[1]

قدم لنا الجاحظ في أسلوب تقريري صفة شائعة ومنتشرة في أهل مرو وهي الكذب وعدم الصدق في القول ، فمن صفات المروزي لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم أن الضيف إذا حل بداره وهو لا يريد لبخله أن يقدم له شيئا يسأله أولا : تغديت ، فإن قال نعم يمنيه بالأكاذيب أنني كنت سأقدم لك غذاء شهيا غير أنك تغديت فحرمت نفسك من هذا الطعام ، فكأنه يريد أن يملأ نفسه حسرة وندامة على أنه أكل ، وهو لا يعلم أن هذا كلام لا ينتهي إلى شيء بدليل أن الإجابة لو كانت " لا " يعدل عن التلويح بالطعام الشهي إلى قوله : لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح ، كأن الإطعام ليس وارداً عليه ، وكان من المنتظر أنه حين يسمع من ضيفه أنه لم يأكل يبادر ويسرع بتقديم الطعام له ، ولكنه علقه على أمر آخر وهو الشراب ، والشراب لا يكون إلا بعد الشبع فلو كان صادقا لأطعمه ثم سقاه ، ولكنه بخيل لا يمكن

---

[1] البخلاء ص ١٧ .

أن يصنع ذلك أبداً ، فهو كلام يدعو إلى السخرية من هذا الشخص المناور .

والعجب أن الجاحظ جعل هذا السلوك تصرفا عاديا يزاوله كل أفراد مرو بلا تفرقة .

وقول الجاحظ : وللجليس إذا طال : تفيد بأن الملل قد استولى على المروزي ويريد صرفه فيسأله عن الطعام حتى يخجل وينصرف وهو يتوقع إحدى إجابتين : إما أن يكون قد تغدى أو لا . وفي كلتا الحالتين لا يقدم له شيئا ، فإن كان تغدى مناه بالطعام الشهي ؛ لأنه ضمن بعدم تقديم طعام لشبعان،وإن أجاب بالنفي مناه بالشراب الذي لا يصلح إلا بعد الأكل . ويبدو أن الشراب كان مشهوراً في مجالسهم وهذا يعد — أيضا — ملمح من ملامح المجتمع الفارسي .

وهذا التصرف مفضوح مكشوف لأنه لو كان قد تغدى كان يقدم له الشراب وإن كان لم يتغدى قدم له الطعام والشراب أيضا ، هذا إذا كان كريماً ، أما أهل مرو جميعا فهم يضنون بالطعام والشراب معاً ، وإنما هو كلام لا فائدة من ورائه ، لأن الرجل ليس صادقا في قوله .

البخل المتأصل في النفوس :

ومن ملامح المجتمع الفارسي في كتاب البخلاء:البخل، ومع أن كل نماذج الكتاب عن البخل لكن البخل هنا من نوع خاص فقد

يبخل المرء لقصر في ذات اليد ، أو خوفا من المستقبل المجهول ، وإن كان البخل في كل الحالات منبوذ وبغيض ، لكن أن يبخل المرء لأن ذلك طبع فيه وسجية ، فهذا هو الداء العضال الذي لا برء منه ولا شفاء .

ومع أن كل نماذج البخلاء تحمل سمة البخل ، وإلى جواره توشي بملمح آخر من ملامح المجتمع إلا أننا وجدنا بخل الفرس يزيد عن البخل قبحا وشناعة وهاك بعضا من نماذجه للدلالة على ذلك .

قال الجاحظ : قال ثمامة [1] : لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لافظ يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يلفظها قدام الدجاجة إلا ديكة مرو، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب ، قال : فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البلاد ، وفي جواهر الماء ، فمن ثم عم جميع حيوانهم .

فحدثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد فقال : كنت عند شيخ من أهل مرو وصبي له صغير يلعب بين يديه ، فقلت له :

---

[1] ثمامة بن أشرس زعيم من زعماء المعتزلة ، نشأ في البصرة ، أوذي في أيام الرشيد ولكنه استطاع في عهد المأمون أن يدير سياسة الدولة ، وأن يكون صاحب الكلمة في القصر وسياسته ، وكان ضمن حاشية المأمون في مرو. البخلاء ص ٢٨٥ .

إما عابثا وإما ممتحنا : أطعمني من خبزكم . قال : لا تريده ، هو مر ، فقلت : فاسقني من مائكم ، فقال لا تريده ، هو مالح . قلت : هات لي من كذا وكذا قال : لا تريده ، هو كذا وكذا ، إلى أن عددت أصنافا كثيرة ، كل ذلك يمنعنيه ويبغضه لي ، فضحك أبوه وقال : ما ذنبنا ؟ هذا من علمه ما تسمع ؟ [1]

كثيرا ما تشيع عن بعض القرى بأكملها أن هذه القرية بخيلة أو كريمة ، ونحن نشاهد ذلك الآن فيما حولنا من قرى ، فما قاله الجاحظ صادق تمام الصدق ، فأهل مرو كما قدمهم الجاحظ جميعهم على درجة كبيرة جداً من البخل ، ولكي يدلل على ذلك عرض للديكة حين تأخذ ما في مناقير الدجاج مع أن العادة أن الديك يلفظ ما في منقاره للدجاجة ، كأنه يفرق بين كرم الديكة والحيوانات الأخرى في كل البلاد وبخل الديكة أيضا الموجودة في مرو ، وتلك مفارقة حتى ولو لم تكن في الحقيقة فهي كاشفة عن طبيعة متأصلة في أهل مرو وهي البخل ، والبخل لم يكن في البشر فقط وإنما في طيورهم وحيواناتهم . وهذا لا نستطيع أن نصدقه على الحقيقة ، ولكن من الناحية الفنية مقبول جداً ، لأن الجاحظ يريد أن يثير مشاعر الاشمئزاز والنفور من البخيل والبخلاء ، فالبخيل يضن بما عنده ليس وحده فقط وإنما

---

[1] البخلاء ص ١٨ .

طيوره وحيواناته ، ولكي يدلل على أن هذا طبع مركوز في أهل هذه البلدة يولدون به قدم لنا من أجل ذلك ابن أحد أصدقائه الذي لم ينوله شيئا مما طلب ، ويتعلل بما يجعل السائل ينفر من طلب الأصناف التي أرادها ، فالخبز مر ، والماء ملح ، وهكذا في كل ما طلب ، ثم تعليق والده بأن هذا لم يتعلمه ابنه ولم يكتسبه من أحد ففهمنا أنه فطرة وطبيعة وأن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطينتهم .

وهذه المبالغة من الجاحظ لم تخرج القصة عن إمكانية حدوثها أو شيوعها في مدينة بأكملها فذلك مشاهد من الواقع . وهدف الكاتب في ذلك هو التنفير من البخل ، فلك أن تتخيل إنسانا أوقعه سوء الطالع في بلد مثل هذه كيف يعيش ؟ إنه ورطة ما بعدها ورطة فلو كان فيها واحد فيه رمق من الكرم فإن الأمر .

وأظن أن ما قدمه الجاحظ في هذه المشاهد يجعل البخيل نفسه ينفر من البخل وهذه قدرة فائقة في الجاحظ ، وتوضح أن الموضوع الذي اختاره مهم جداً في التربية الأخلاقية للمجتمع وتجلت كذلك عبقرية الجاحظ في العرض .

ولك أن تتخيل إيحاءات بعض الكلمات التي وردت في النص فقوله : قط : تفيد التعميم الذي قضى به بالنسبة للديكة

وأيضا تكشف عن الشذوذ في أهل مرو بطيورهم وحيواناتهم وأطفالهم ، فكلمة قط جعلت ما عليه أهل مرو من بخل شاذ .

وقوله : إلا وهو لافظ : هذا التعبير بأسلوب القصر جعل تصرف الديكة فطرة سليمة موجودة فيها ، فالديك في غير مرو إما نصفه بالكرم أو نصفه بالحدب والحنو على زوجته الدجاجة ، فهو يرعاها ويقدم لها من طعامه ، وتلك معاملة حميمة قلما توجد في الجنس البشري ، فكما أن الكرم فطرة فكذلك البخل فطرة ، ويتضح ذلك من تقابل الأمرين : ديكة المدن كلها وديكة مرو ، وهو في الحقيقة لا يقصد الديكة وإنما يقصد البشر ، ولذلك قدم لنا الابن الذي بخل بكل شيء .

وقوله : تسلب : تفيد الغلظة والقهر ، فديكة مرو لا تأخذ طعام الدجاجة طواعية وإنما تجبرها على التنازل عنها للديك، في حين أن الديكة الأخرى تتطوع بالعطاء .

ثم يلفظها : ثم تفيد التراخي بمعنى أن الديك يبقى الحبة في منقاره بعض الوقت ، وبهذا تصير من ملكه واختصاصه ، فإذا جاد بها يكون قد جاد عن كرم ، ويلفظها : تشير إلى حركة مندفعة من فمه لكي تصل الحبة إلى الدجاجة ولو كانت بعيدة عنها .

[illegible]

وهذا النص على الجملة يكشف خلال ... الشره والشح في مدينة بأكملها فتمنع أصحابه قبل خروجهم إلى ... والتخلي عنه.

وقال الجاحظ — أيضا — : وكنت في منزل ابن أبي كريمة[1] وأصله من مرو، فرآني أتوضأ من كوز خزف فقال: سبحان الله! أتتوضأ بالعذب، والبئر لك معرضة. قلت: ليس بعذب، إنما هو من ماء البئر. قال: فتفسد علينا كوزنا بالملوحة.

فلم أدر كيف أتخلص منه[2].

هذه الحكاية وقعت من مروزي مع الجاحظ نفسه، فهي رواية عاينها الجاحظ وشاهد أثره فكتبه كدليل على [illegible] أهل مرو الذين [illegible] عنهم البخل الكثير، ودليل أيضا على أنه كان يغشى مجالسهم بكثرة. فما قاله عنهم مأخوذ من واقعهم، وليس ثمة مانع من أن يكون الجاحظ قد استخدم الخيال ليضحكهم [illegible] وجعله مثيرا للنفور من البخل والبخلاء. فالمروزي لم يعجبه أن توضأ الجاحظ من كوز خزف فظن أنه ملأه بماء العذب وهذا

---

(١) ابن أبي كريمة [illegible] وكان شاعرا يقول الشعر [illegible]، وهو من أصحاب الجاحظ الذين كان [illegible]. البخلاء ص ٢٨٢

(٢) البخلاء ص ١٢

إسراف في نظره بل سفه ، حيث إن الماء العذب جعل للشرب وماء البئر يغني في الوضوء ، فلما أخبره أنه من البئر فقال له إن ملوحة الماء تفسد الكوز . وهذا أمر غير صحيح ، لأن الملوحة لا تلصق بالكوز ، فبمجرد أن نتخلص من الماء ينتهي الأمر ويعود الكوز صالحاً للاستعمال في شتى الأغراض ، ولكنها مشاكسة قبلها الجاحظ على مضض كشفت عن البخل الذي نتجت عنه حماقة عند البخيل ، فلم يراع كرامة الضيف واعترض عليه بأشياء تافهة تتسبب في الإحراج ، ولذلك أصابت الحيرة الجاحظ وتساءل مع نفسه كيف أتخلص منه .

ومن الكلمات الموحية في النص قوله :

وأصله من مرو : هذا التنصيص يفيد أن الجاحظ استقر في وجدانه بأن أهل مرو لا يعرفون إلا البخل ، بل إن البخل منهم شيء طبعي متوقع .

كوز خزف : من صفات الخزف أنه لا تعلق به الأشياء بل بمجرد إفراغه فإن أقل القليل من الماء ينظفه ، ومع ذلك اعترض على الماء العذب وهذا إسراف ، وعلى الملوحة التي ستحل بالكوز الخزف .

فتفسد علينا : هذا مصدر الحيرة عند الجاحظ ، لأن المروزي لم يعجبه أن يتوضأ بالماء العذب ، ورفض أيضا ماء البئر

مع أنه أشار عليه به قبلا ، وليس أمام الجاحظ إلا أحد أمرين : إما أن يتوضأ بالماء العذب وهذا غير متاح ، وإما أن يتوضأ بماء البئر وهو ما حدث منه ، ولم يعجب هذا ولا ذاك المروزي فماذا يفعل الجاحظ ، هذا هو سر الحيرة .

وعلى هذا يكون المروزي قد بخل بالماء على الجاحظ سواء كان الماء عذباً أو غير عذب بحجج واهية .

وقد أورد الجاحظ في بخلائه أكثر من قصة [1] تبين أن مدينة "مرو" تتفوق في البخل على سائر المدن الفارسية ، ومن هذا القبيل ما ذكره الجاحظ حيث قال :

وقال خاقان بن صبيح : دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا ، وإذا هو قد أتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الدقة، وإذا هو قد ألقى في ذهن المسرجة شيئا من ملح ، وقد علق على عمود المنارة عوداً بخيط ، وقد حز فيه حتى صار فيه مكان للرباط ، فكان المصباح إذا كاد ينطفئ، أشخص رأس الفتيلة بذلك . قال : فقلت له : ما بال العود مربوطاً ؟ قال : هذا عود قد تشرب الدهن ، فإن ضاع ولم يحفظ احتجنا إلى واحد عطشان، فإذا كان هذا دأبنا ودأبه ضاع من دهننا في الشهر بقدر كفاية ليلة . قال : فبينا أنا أتعجب في نفسي ، وأسأل الله

---

[1] راجع البخلاء ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

جل ذكره العالية والستر ، إذ دخل شيخ من أهل مرو ، فنظر إلى العود فقال : يا أبا فلان فررت من شيء ووقعت في شيء ، أما تعلم أن الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء ؟ أو ليس قد كان البارحة عند إطفاء السراج أروى ، وهو عند إسراجك الليلة أعطش ؟ قد كنت أنا جاهلا مثلك ! اربط — عافاك الله — بدل العود إبرة أو مسلة صغيرة ، وعلى أن العود والخلال والقصة ربما تعلقت بها الشعرة من قطن الفتيلة إذا سويتاها بها فيشخص لها . وربما كان ذلك سببا لانطفاء السراج . والحديد أنفس ، وهو مع ذلك غير نشاف . قال خاقان : ففي تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس ، وفضل أهل مرو على سائر أهل خراسان .[1]

إنها موازنة بين بخيلين أحدهما من مرو والآخر من خراسان، لكن المروزي تفوق ، لأن البخل في أهل مرو مركوز في طباعهم وسجاياهم ، وفي أصل خلقتهم فكأنهم فطروا عليه .

وهناك نموذج آخر من النماذج الدالة على شيوع البخل في أهل الفرس عامة .

---

[1] البخلاء ص ١٩

قال الجاحظ : قال أحمد المكي [1] : قلت لأبي سعيد المدائني [2] مرة : " والله إنك لكثير المال ، وإنك لتعرف ما نجهل،وإن قميصك وسخ ، فلم لا تأمر بغسله ؟ " قال : " فلو كنت قليل المال وأجهل ما تعرف ، كيف كان قولك لي ؟ إني قد فكرت في هذا منذ ستة أشهر ، فما وضح لي بعد وجه الأمر فيه. أقول مرة : الثوب إذا اتسخ أكل البدن ، كما يأكل الصدأ الحديد ، والثوب إذا ترادفه العرق ، وجف وتراكم عليه الوسخ ولبد ، أكل السلك وأحرق الغزل . هذا مع نتن ريحه وقبح منظره ، وبعد فإني رجل آتي أبواب الغرماء ، وغلمان غرمائي جبابرة ، فما ظنك بهم إذا رأوني في أطمار وسخة وأسمال دنسة وحال حداد ؟ جبهوا مرة ، وحجبوا مرة . فيرجع ذلك علينا بمضرة من إصلاح المال ، وأن ينفى عنه كل ما أعان على حبسه، مع ما يدخل من الغيظ ، ويلقى من كان كذلك من المكروه ، فإذا اجتمعت هذه الخواطر ، هممت بغسلها ، فإذا هممت به عارضني معارض يوهمني أنه أتاني من جهة الحزم ومن قبل العقل ،

---

[1] كنيته أبو إسحاق نشأ في مكة ثم هاجر إلى العراق واتخذ البصرة موطنا وقد أكثر الجاحظ من ذكره . البخلاء ٣٣ .

[2] كان أبو سعيد المدائني إماما في البخل ، عاش في البصرة ، وحدث عنه الجاحظ كثيرا . البخلاء ص ٣٧٣ .

فقال : أول ذلك الغرم الذي يكون في الماء والصابون ، والجارية إذا ازدادت عناء ، ازدادت أكلا . والصابون نورة ، والنورة تأكل الثوب وتبلى الخز ، ولا يزال الثوب على خطر حتى يسلم إلى القصر والدق . ثم إذا ألقى على الرسن ، فهو بعرض الجذبة والنترة والعلق . ولابد من الجلوس يومئذ في البيت . ومتى جلست في البيت ، فتحوا علينا أبواباً من النفقة وأبواباً من الشهوات . والثياب لابد لها من دق . فإن نحن دققناها في المنزل قطعناها ، وإن نحن سلمناها إلى القصار فغرم على غرم ، وعلى أنه ربما أنزل بها من المكروه ما هو أشد ، وما جلست في المنزل قط إلا أرجف بي الغرماء ، وادعوا على الأمراض والأحداث ، وفي ذلك لهم فساد والتواء وطمع لم يكن عندهم . فإذا أنا لبستها وقد ابيضت وحسنت وجفت وطابت ، تبينت عند ذلك وسخ جسدي وكثرة شعري ، وقد كان بعض ذلك موصولا ببعض ففرقته ، فاستبان لي ما لم يكن يستبين ، واكترثت لما لم أكن أكترث له . فيصير ذلك مدعاة إلى دخول الحمام . فإن دخلته فغرم ثقيل ، مع المخاطرة بالثياب ، ولي امرأة جميلة شابة ، إذا رأتني قد أطليت وغسلت رأسي وبيضت ثوبي ، عارضتني بالتطيب وبلبس أحسن ثيابها ، وتعرضت لي ، وأنا فحل والفحل إذا هاج لم يرد رأسه شيء . فإذا أردت مواقعتها ، ورأت

حرصي نثرت على الحوائج نثراً . ثم احتجنا إلى تسخين الماء ، وأشد من هذا كله أن تعلق فتحتاج إلى ظئر ، فنقع في ما لاغاية له .

مع أمور كثيرة نسي بعضها أحمد ، وبعضها أنا .[1]

هذا بخيل اشتط في بخله لدرجة توهم أشياء لم تقع فخاف أن يدخل فيها حتى لا يغرم ، واسترسل في أشياء خرجت من شيء واحد ، وهو سؤال أحمد المكي له لماذا لم تنظف قميصك فأخذه إلى دوامات يسلم بعضها البعض الآخر ، تجعلك حائرا لا تعرف ماذا ترد عليه . وهو لا يبغي من وراء ذلك سوى تبرير هذا البخل الثقيل السمج ، ولو كان الناس كذلك لما أقدم إنسان على عمل شيء مطلقا مخافة أن يأتيه من ورائه الغرم فيخسر بذلك خسراناً بينا .

والعجيب في الأمر أن الراوية لم يقدم كل ما جادت به قريحة أبي سعيد المدائني لكثرتها ، مع أن الذي أثبته كثير ينغص علينا أفكارنا ويفزعنا ، ومع كثرة الذي سرده اعتذر بأنه نسي أشياء كثيرة ، ونسي معه أيضا الجاحظ عند إثبات القصة أموراً أكثر من التي أثبتها ، فكأن القصة مع طولها تعرضت للنسيان مرتين .

---

[1] البخلاء للجاحظ : ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ .

هذا أمر يقدم لنا أبا سعيد المدائني في صورة رجل يلح على المعنى حتى يستنفذه ، والحقيقة أن هذا من خصائص أسلوب الجاحظ ، وقال عنه النقاد إنه إذا تعرض لمعنى استقصاه حتى لا يترك فيه زيادة لمستزيد ، ويعرض الفكرة وجزئياتها وما يشترك معها في المعنى من بعيد أو قريب ، ولو ذهبنا نحلل بعض ألفاظ النص لنتعرف على مراد الجاحظ لوجدنا في قوله :

مرة : تفيد أنها لم تكرر ، وذلك لأنها فتحت تيارات هائلة من الاستنجاحات فجعلته يحفل من تكرارها مع هذا الرجل .

إنك لكثير المال : تسجيل عليه بالتقصير وسلب الحجة .

وسخ : تشير إلى النفور والاحتراز من القميص وصاحبه خاصة إذا علم الناس أنه ثري يستطيع أن يغسله ، بل يستطيع أن يشتري غيره .

لما لا تأمر بغسله : إشارة إلى أنه لن يرهق في الغسل حتى يمنع عنه ، وإنما سيقوم غيره بأداء هذه المهمة ، وهو دليل على أن لديه كثير من الخدم والإشارة إلى شيوع ظاهرة الخدم في ديارهم وفي ذلك دلالة قوية وسخا لأمور أوضحها فيما بعد .

كيف كان لو فاتك لي : إنها الصفقة لا يقوم بها إلا البخلاء ، فهو يقول له لو كنت فقيرا لاستحسنت في العسر في وسخ

القميص ، ولما وجدت وجها تلومني عليه من وسخي ، إنه أمر فرضي يدل على سماجة هذا الرجل زيادة على بخله لأن هذا الكلام فيه تأنيب .

منذ ستة أشهر : تفيد أن القميص اعتلاه الوسخ لمدة أطول من الستة أشهر ، فهو فطن إلى وسخة قبل ستة أشهر وما قبل ذلك لم يفطن إليه .

أقول مرة : هذه الكلمة تفيد بأن هناك عملين متعارضين وهو متردد بينهما ، ولكن الذي وجد في النص استطراد ، ولم نر شيئا يعارض شيئا آخر ، بل كل خواطره تجمع على أنه يرفض غسل هذا القميص .

أكل البدن : تفيد جسامة الخطر الذي يتعرض له الإنسان من لبس الثياب القذرة .

كما يأكل الصدأ الحديد : تشبيه أفاد أن الوسخ له فعل قاس في البدن كالصدأ ، ومعلوم أن الصدأ يعطي لونا منفرا ويجعل الحديد يذوب ويعرك بسهولة بين أصابع أي أسنان حتى الأطفال ، بل يتساقط وحده إن لم يتعرض له أحد . فهذه خطورة جسيمة .

ترادفه العرق : تفيد التتابع والتوالي أي أن عرقا يأتي وراء الآخر ، وهو شيء منفر أولا ثم يتعب صاحبه ثانيا

لبد : العرق ماء ، والهواء مليء بالأتربة ، والتراب إذا صادف شيئا مبتلا التصق به ، فكلمة لبد أتت لنا بنهاية المطاف : بأن الثوب الملبد يصبح خشنا صلبا يؤذي صاحبه في كل حركة .

نتن ريحه وقبح منظره : شيئان يجتمعان على الثوب من جراء الوسخ والعرق ، فالنتن يجعل كل إنسان ينفر منه إذا قرب منه ، وكذلك يجعل منظر الإنسان الذي عرق ثوبه وجسده قبيحاً يبتعد الناس عنه ويفرون من لقائه .

جبابرة : تفيد الخوف منهم وتوقع الشر ، لأن وسخه سيغريهم به فيسمعونه ما يكره .

جبهوا مرة : أي واجهوه وهذا ما يخشاه لأنهم يصارحونه بالبذاءات .

وحجبوا مرة : تفيد عدم معاملته على وتيرة واحدة ، فإن جابهوه مرة حرموه الأخرى ، ويصيبه بسبب ذلك الضرر إما بالإيذاء ، وإما بعدم التمكن من تحصيل أمواله . والثانية أشق عليه وأقسى .

هممت : أي أنه لم يفعل وإنما تحفز لغسل قميصه ثم سرعان ما يحجم عن ذلك ، ويتقاعس عنه ، لأن غسله سوف يراكم عليه مضرات كثيرة كما أبان فيما بعد في النص .

من جهة الحزم ومن قبل العقل : تخله صور له عدم غسل القميص يعد قراراً حازماً ، وكذلك اتجاها عقلياً صرفا ، وهو لا يريد أن يكون مجنونا فيغسل قميصه ولا حائر العزيمة بتردده ولذلك حزم أمره على عدم غسله .

الغرم : تفيد خوفه من الإنفاق .

ازدادت أكلاً : لا يهمه أن تتعب الجارية بقدر خوفه من كثرة أكلها ، لأنها تريد أن تقوى نفسها على الخدمة الشاقة في غسل القميص .

أبوابا من النفقة : لأنه سوف يطالب بنفقات البيت جميعاً، ولعله كان يهرب من ذلك بعدم الجلوس في البيت .

وأبواباً من الشهوات : فهو منقطع أمام زوجته وهو لا يخشى ذلك قدر خشيته مما يترتب عليه من التطيب ونفقاته ، وأيضا من أن تحمل الزوجة ، وتحتاج إلى من يخدمها ، ومن يرضع لها وليدها ، فهو يجمع المصائب قبل أن تقع ، كل ذلك من أجل ألا يغسل القميص .

فغرم على غرم : هذا ما يخشاه ، لأنه حصر الأمر بين تصريفين لا يمكنه من تنفيذ أحدهما بل هما ممتنعان عنه . فلا يستطيع دق الثوب في المنزل إذ أنه على غير خبرة فيتلف ، وإن

أعطاه للدقاق أخذ منه أجراً وكلفه ذلك مالا ، وعليه فهو لن يصنع هذا ولا ذاك .

أرجف : أي أشاعوا الشائعات التي تضرني من مثل : أنه أفلس أو مات ، وأقل القليل أنه مرض ، وهذا يضيع ماله الذي في السوق .

موصولا بعض : الوسخ يداري الشعر الكثيف ويداري وسخ جسده لكن عندما ينظف القميص تظهر كل هذه العيوب فيلزمه أن يعالجها جميعا .

اكترثت : عندما ظهرت العيوب اهتم مع أنها كانت في مجمعها خافية عليه لا يهتم بها ، وهذا تبرير لما تشبث به من عدم نظافة القميص ، فكأن نظافته ستجر عليه الكوارث وهذا نابع عنده من شدة البخل ، وعدم الاهتمام بالنظافة التي هي من الإيمان .

والجاحظ هنا يشنع على البخلاء تشنيعا جسيماً ، إذ أن هذا النموذج الذي معنا تداعت لديه المعاني ، وتواكبت في ذهنه المخاطر الموهومة والتي لم تحدث ، ولكنه يتوقعها ، ويريد بذلك أن يقنعنا بأنه على صواب حين امتنع عن غسل القميص ، وأمره هذا يدفع إلى صدورنا مشاعر السخرية والسخط

والاشمئزاز،والضحك أيضا لأنهم كما يقولون : شر البلية ما يضحك .

وإذا كان البخلاء بهذه الصورة فاختفاؤهم من الحياة أفضل ، وهذا ما ينشده الجاحظ ويحرص عليه ، فقد ضخم هذه الصفة حتى جعل صاحبها يكرهها ، ويكره نفسه ، هذا اتجاه تربوي من الجاحظ حرص فيه على أن ينفر الناس من البخل عن طريق الإيحاء بمثل هذه المواقف الشاذة .

وهذا نموذج آخر يدل بسبب على البخل ، وعلى ملمح آخر من ملامح المجتمع الفارسي وهو شيوع ظاهرة الطلاق فيما بينهم .

يقول الجاحظ : وقال أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام: دعانا جار لنا فأطعمنا تمرا وسمن سلاء ، ونحن على خوان ليس عليه إلا ما ذكرت ، والخراساني معنا يأكل ، فرأيته يقطر السمن على الخوان حتى أكثر من ذلك . فقلت لجار إلى جنبي : ما لأبي فلان يضيع سمن القوم ، ويسيء المؤاكلة ، ويغرف فوق الحق ؟ قال : وما عرفت علته ؟ قلت : لا والله . قال : الخوان خوانه ، فهو يريد أن يدسمه ، ليكون كالدبغ له ، ولقد طلق

امرأته — وهي أم أولاده — لأنه رآها غسلت خوانا له بماء حار فقال لها : هلا مسحتيه .[1]

فهذا رجل خراساني دفعه البخل إلى الجشع وعدم الالتزام بآداب الطعام والمؤاكلة فظهر بمظهر منفر حين شاهده رفيقه يأكل بطريقة مشينة ، والأدهى من ذلك أن يطلق امرأته وهي أم أولاده لأنها غسلت الخوان بماء حار أذهب ما فيه من دسم . ما أوهن السبب الذي نتج عنه خطب فادح . لكنه البخل المركوز في النفوس المتأصل في السجايا والطباع .

عدم الوفاء وخلف الوعد :

من ملامح المجتمع الفارسي في البخلاء عدم الوفاء وخلف الوعد ، واتخاذ الحج وسيلة للتجارة لا للعبادة فحسب .

يقول الجاحظ ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر ، وذلك : أن رجلا من أهل مرو وكان لا يزال يحج ويتجر ، ونزل على رجل من أهل العراق ، فيكرمه ويكفيه مؤنته ، ثم كان كثيراً ما يقول لذلك العراقي : ليت أني قد رأيتك بمرو ، حتى أكافئك ، لقديم إحسانك ، وما تجدد لي من البر في كل قدمة . فأما ها هنا فقد أغناك الله عني .

قال : فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية ، فكان مما هون عليه مكابدة السفر ووحشة

[1] البخلاء ص٢٣، ٢٤ .

الاغتراب ، مكان المروزي هنالك .فلما قدم مضي نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسوته وكسائه ، ليحط رحله عنده ، كما يصنع الرجل بثقته وموضع أنسه . فلما وجده قاعداً في أصحابه، أكب عليه وعانقه فلم يره أثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط. قال العراقي في نفسه : لعل إنكاره إياي لمكان القناع ، فرمى بقناعه ، وابتدأ مساءلته ، فكان له أنكر ، فقال لعله أن يكون إنما أتى له من قبل العمامة ، فنزعها ثم انتسب ، وجدد مساءلته ، فوجده أشد ما كان إنكاراً ، قال : فلعله إنما أتى من قبل القلنسوة . وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل ، فقال : لو خرجت من جلدك لم أعرفك .[1]

كثيراً من الناس يسرفون في الوعود ما داموا في مكان من الأرض لا يملكون فيه البر بوعودهم ، والإسراف في حد ذاته مؤشر لذوي الفطنة والذكاء على أن صاحب هذا الوعد لن يبر به ، لأن الإنسان يقيس مقدرته على الوعد إن كان يستطيع الوفاء به وعد ، وإن كان لا يقدر يحجم عن النطق بكلمة يعلم تماما أنه لا يفي بها ، هذا هو شأن الأحرار الكرماء . أما البخلاء فهم لا يعطون شيئا ويضنون بأموالهم وأشرهم ذلك الذي يظن أنه أعطى كلاما فلا يجمع بين الكلام وإنجاز الوعود . أي أنه يرى

[1] البخلاء للجاحظ ص ٢٢ .

ان البذل في الكلام نوع من الكرم فلا يطلب منه بعد ذلك شيء آخر

وهذا المروزي البخيل كان يلم بصاحبه العراقي ، ومن أجل أن يزيد العراقي في كرمه أسرف في وعوده ، وهذا نابع من بخله فهو يظن أن العراقي سوف يضيق به ، ولا يتحمل الإنفاق عليه أمداً طويلا كما هو مستقر في أخلاقه وطباعه ، فما زال يعطي للرجل الوعود وهو مطمئن إلى أن بعد الشقة بين العراق ومرو يحول بين صاحبه والحلول عنده ، فهو إذن يستدرج العراقي إلى إكرامه والإنفاق عليه ، وأعطاه في مقابل ذلك كلاما وهو مطمئن إلى عدم الوفاء كما رأينا فيما بعد عندما زاره ، فقد شاء حظ المروزي العاثر أن تعرض للعراقي بعض الأمور تضطره إلى الذهاب إلى مرو ، فذهب مطمئن البال منشرح الصدر يمني النفس بالأماني ، لأنه سيلم بصاحبه الذي طالما أغدق عليه فلا بأس من أن يستضيفه ويكرم وفادته رداً لما فعله معه ، ولكن حاب فأله عندما وقف على مجلس صاحبه ورآه مع جمع وأقبل عليه العراقي بفرحة تحتضنه لأنه صافي النية ، يظن أن صاحبه يكن له من الحب والتقدير مثل ما لديه ، ولكن قابله المروزي ببرود والرجل يحسن الظن ، فخيل إليه أن صاحبه أنكره لبعض ثيابه فخلعها واحدة وراء الأخرى ، ولكن لم يتغير في المروزي

شيء ، ولما انتهى العراقي من تعريف نفسه مرات قال المروزي لو خرجت من جلدك ما عرفتك . فهو إصرار على الإنكار ، وإصرار على التنصل من وعوده ، وعدم الوفاء ، واستغراق في البخل ، ولم يقدر ما أحدثه في نفس صاحبه من إحباط وما أحدثه في نفسه هو من خجل لو كان لديه شعور ، ولا غرابة في ذلك فهو من " مرو " ذات الشهرة الزائعة الواسعة في البخل المركوز في طبائع النفوس .

ومن الكلمات الكاشفة عن المواقف في هذا النص التي تعرى صاحبها وتكشفه على حقيقته ، والتي تدل على أن الجاحظ بارع في انتخاب واختيار وانتقاء الكلمات الموحية بالجو النفسي في النص ، من هذه الكلمات قوله :

يحج ويتجر : فهذه كلمة تفضح هذا الرجل لأن الحج ينبغي أن يكون للعبادة فقط ، عملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " [1] ، وهذا رجل قد أبطل عمله وخسر آخرته عندما اتخذ الحج وسيلة للتجارة ، وكان على العراقي أن يدرك أن

---

[1] فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ١ ص٩ .

المروزي لا خير فيه ، فالمقصد الأول هو التجارة والكسب وليس
الخ ، فهو كاذب مع الله ، وحتما سيكون كاذباً مع البشر ،
فلو فكر العراقي قليلا لأدرك أنه لن يفي بوعد أو يحافظ على
عهد ، وكان الأحرى به أن ينفض يديه عن صداقة هذا المخادع،
ولكن بعض الناس تنطلي عليهم الوعود البراقة والكلمات
المعسولة فيقعون في خطأ .

ليت أني : معلوم في اللغة أن ليت للتمني ، والتمني طلب
المستحيل أو ما فيه عسر ، فلو فطن العراقي لأدرك أنه يعرض
عليه عرضا مستحيلا أو على أقل القليل فيه مشقة عند إنجازه ،
ولكن كما قلنا الغفلة أخته عن هذه الملاحظة ، لكن الجاحظ
وضع ليت مكان لعل لأنه يريد أن يفضح هذا البخيل الذي
أسرف كثيرا في الوعود فأجرى على لسانه أمنية وليست رجاء
قابلا للتحقيق . هذه براعة الجاحظ .

ما تجتد : تفيد أن العراقي في كل مرة لا يتوانى عن
إكرامه ، لأن الكلمة تفيد التكرار بشيء غير مسبوق ، كأنه في
كل مرة يقدم له جديداً لم يصنعه معه من قبل ، وهي كلمة تفيد
منتهى الكرم عند العراقي ، وأيضا حبث المروزي الذي كان
يعرض العراقي على تقديم الجديد في كل مرة ولا يتوانى في
إكرامه .

في ثياب سفره : تفيد أن العراقي لم يقف ليستريح في أي
مكان لينفط عن نفسه غبار السفر ، وهذا يشير إلى أنه في أشد
الحاجة إلى العناية به وتقديم ما يريحه ، ليس عند صديقه فحسب
بل عند كل إنسان لديه مروءة ، فالكريم إن رأى مسافرا أجهده
السفر يحرص على تقديم العون إليه وبسرعة ، ولكن المروزي
البخيل لم يؤثر فيه هذا المنظر وتجاهله .

أكب : تفيد شدة اللهفة والشوق ، وكان ينبغي أن يبادله
صديقه الشعور نفسه فيهم ويحتضنه لكن لم يحرك ذلك فيه شيئا ،
وهنا كان ينبغي أن يقنع العراقي بأنه لا فائدة من صديقه ، ولكنه
التمس له الأعذار في المنظر ، وأخذ يخلع ويعرف نفسه في كل
مرة ، فلما أعياه الإلحاح هتف صاحبه : لو خرجت من جلدك لم
أعرفك . هذه الكلمة لو تحققت فإنها تباعد كثيراً بين التعارف
لأن الجلد فيه ملامح الإنسان ، فلو نزعناه لزاد التجاهل به ،
ولكن الجاحظ أتى بهذه العبارة لتناسب كثرة الخلع ، خلع
العمامة والقلنسوة والكساء ، فلم يبق بعد ذلك إلا الجلد ، وهي
توحي باستحالة هذا الفعل ، وفشله لو حدث ، وعلى ذلك
يكون عبر بإصرار المروزي على تجاهل صاحبه ، وتفيد في النهاية
خيبة أمل العراقي في صاحبه .

والذي دفع الجاحظ إلى إثبات هذه الكلمة إنما هو كشف البخلاء الذين في سيل المادة لا يعرفون أحداً ، ولا يوفون بوعد ، أو يحافظون على عهد .

وإذا تصورنا ما ألم بالعراقي بعد هذا من أحداث لامتلأنا ألما وسخطاً ، فهذا العراقي غريب ليس له دار وليس عنده سوى هذا الصديق فكيف مضت به الحياة في هذا البلد البعيد عن وطنه ؟! بعد أن غرر به المروزي ، وأخلف وعده معه ، وتنصل من الوفاء لمن قدم له المعروف سلفا ، وتركه وحيدا في وطن لا أهل له فيه ولا ولد .

الاعتقاد في الحسد :

ملمح آخر من ملامح المجتمع الفارسي في البخلاء يتمثل في الاعتقاد في الحسد يتضح ذلك من القصة التالية، يقول الجاحظ : قال رمضان : كنت مع شيخ أهوازي في جعفرية ، وكنت في الذنب، وكان في الصدر ، فلما جاء وقت الغداء أخرج من سلة له دجاجة وفرخا واحداً مبرداً ، وأقبل يأكل ويتحدث ، ولا يعرض على ، وليس في السفينة غيري وغيره ، فرآني أنظر إليه مرة ، وإلى ما بين يديه مرة ، فتوهم أني أشتهيه واستنطيه ، فقال لي : "لم تحدق النظر ؟ من كان عنده أكل مثلي ، ومن لم يكن عنده نظر مثلك " قال : ثم نظر إليَّ وأنا أنظر إليه ، فقال : " يا هناه أنا رجل حسن الأكل لا آكل إلا طيب الطعام وأنا أخاف أن تكون

عينك مالحة ، وعين مثلك سريعة ، فاصرف عني وجهك " قال فوثبت عليه ، فقبضت على لحيته اليسرى ، ثم تناولت الدجاجة بيدي اليمنى ، فمازلت أضرب بها رأسه حتى تقطعت في يدي ، ثم تحول إلى مكاني ، فمسح وجهه ولحيته ، ثم أقبل علي فقال : "قد أخبرتك أن عينك مالحة ، وأنك ستصيبني بعين " قلت : "وما شبه هذا من العين ؟ " قال : " إنما العين مكروه يحدث . فقد أنزلت بنا عينك أعظم المكروه " . فضحكت ضحكا ما ضحكت مثله ، وتكالمنا حتى كأنه لم يقل قبيحا ، وحتى كأني لم أفرط عليه . [1]

رجلان يستقلان سفينة لا ثالث لهما ، أحدهما في مقدمتها، والآخر في المؤخرة ، لكن الشيخ المروزي الذي يتخذ من مقدمة السفينة مقراً له أعد عدته للسفر ، فاصطحب معه مؤنته من أطيب المأكول خاصة الدجاج والفراخ المبردة ، وأهل الفرس يميلون بطبعهم إلى الطعام المبرد ، وكعادة الفرس — أيضا — فهذا المروزي يهوى الوحدة والتفرد خاصة في الأكل ، فمع أن السفينة لا يوجد فيها غير صاحبه ، إلا أنه اتجه للأكل منفرداً وعلى مرأى من صاحبه دون أن يوجه الدعوة إليه ، والمألوف في مثل هذا الموقف أن يدعو من معه الطعام من ليس معه طعام ،

---

[1] البخلاء ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

وكما يقال (طعام الواحد يكفي الاثنين) لكن أبي هذا والموزي في طبعه التفرد والبخل ، وليته اكتفى بذلك بل اتهم صديقه بالحسد في صراحة تامة دون مداراة ، وقال له : إني أخشى على نفسي من عينك المالحة ، مما جعل صديقه يشتاط غضبا وغيظا ، وصدر منه رد فعل قاس ضد الأهوازي الذي استفذه بالأكل أولا وبالقول ثانيا ، فانهال عليه ضربا وبطشا والأهوازي لم يتحرك حتى انتهى صاحبه من بطشه ، فقال الأهوازي : العين مكروه يصيب الإنسان . ألم أقل لك إن عينك مالحة ، لقد أنزلت بي عينك أعظم مكروه .

والقصة توحي بأكثر من ملمح من ملامح المجتمع الفارسي في مقدمتها الاعتقاد بالحسد ويبدو أنه كان مشهوراً بينهم ، كما توحي بتفضيلهم للطعام المبرد فقد ورد ذكره في أكثر من نادرة ، وكذلك شهرة الدجاج المبرد في موائدهم ، كما توحي بشراء هذا الأهوازي وأنه لا يأكل إلا أطايب المأكول ، ويبدو أن سيطرة الفرس على اقتصاد البصرة حقق لهم ثراء كبيرا. ويتضح ذلك جليا في معظم ما نعرض له من قصص في هذا المبحث .

ومن النماذج الدالة على أن الفرس كانوا يعدون للرحلة عدتها من الطعام ، وأنهم يفضلون الطعام المبرد سواء أكان ذلك

المبرد من اللحوم أو الدواجن .ما ذكره الجاحظ عن شيخ من أهل خراسان كان يقوم برحلة إيمانية كل يوم جمعة لأداء الصلاة في مكان بعيد من داره ، يقول الجاحظ : وحدثني إبراهيم ابن السندي قال : كان لنا شيخ من أهل خراسان ، وكان في غداة كل جمعة يحمل معه منديلا فيه جرذقتان ، وقطع لحم سكباج مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرة فيها ملح ، وأخرى فيها أشنان ، وأربع بيضات ليس منها بد ، ومعه خلال . ومضى وحده ، حتى يدخل بعض بساتين الكرخ ، وينظر موضعا تحت شجرة وسط خضرة وعلى ماء جار ، فإذا وجد ذلك جلس ، وبسط بين يديه المنديل ، وأكل من هذا مرة ومن هذا مرة ، فإن وجد قيم ذلك البستان رمى إليه بدرهم ، ثم قال : اشتر لي بهذا، أو أعطني بهذا ، رطبا — إن كان في زمان الرطب — أو عنبا — إن كان في زمان العنب — ويقول له : إياك إياك أن تحابيني ، ولكن تجود لي ، فإنك إن فعلت لم آكله ولم أعد إليك . واحذر الغبن فإن الغبن لا محمود ولا مأجور ، فإن أتاه به أكل كل شيء معه ، وكل شيء أتى به ، ثم تخلل وغسل يديه ، ثم تمشى مقدار مائة خطوة ، ثم يضع جنبه فينام إلى وقت الجمعة . ثم ينتبه فيغتسل ، ويمضي إلى المسجد ، هذا كان دأبه كل جمعة . [1]

---

[1] البخلاء ص ٢٤ ، ٢٥ .

والقصة تشير — أيضا — إلى عادة كانت مألوفة في الماضي القريب حيث كان شائعا أن يبيع صاحب الحديقة ثمارها على الأشجار، وكان المشترون يذهبون إلى الحديقة فيقدم لهم أصحابها من نوع الفاكهة الموجودة عندهم فيأكلون بلا ثمن لكن لا يأخذون إلا ما اشتروه، ويبدو أن هذه العادة التي وصلت إلينا هي متوارثة مما تعوده الناس في سالف الأزمان، كما حدث في القصة التي معنا، لكن ارتفاع الأسعار في هذه الأيام حال بيننا وبين هذه العادة فليس هناك من يذهب لشراء الفاكهة من حديقة مباشرة وإنما يذهب للشراء من حوانيت الفاكهة بقدر معلوم

الشك والخيانة :

ومن ملامح المجتمع الفارسي في البخلاء الشك والخيانة ، ويمكن أن نلمح ذلك من خلال هذا الخبر .

قال الجاحظ : حدثني أبو الحسن المدائني قال : كان بالمدائن تمار ، وكان غلامه إذا دخل الحانوت يحتار ، فربما حسبه فقفه يأكل التمر ، فسأله يوما فأنكر ، فدعا بقطنة بيضاء ، ثم قال " امضغها " فمضغها ، فلما أخرجها وجد فيها حلاوة وصفرة ، قال : هذا دأبك كل يوم ، وأنا لا أعلم ؟ اخرج من داري " .(1)

(1) البخلاء للجاحظ ص ١٣٢ .

رجل يبيع التمر وهو بخيل بطبعه لم يسمح لغلامه من أن يأكل تمرة أو تمرتين يعطيهما له عن رضى وطيب خاطر ، ويبدو أن بخله هذا اضطر الغلام لأن يأكل من التمر في غيبته لأنه يعلم بأن صاحب الحانوت لو طلب منه فسوف يمتنع عن عطائه ، فأراد أن يأخذ لنفسه ما يحتاج من غير لجوء إليه وإن كان هذا لا يجوز ، ولكن الرجل وهو دائما شديد الوسواس شك في سلوك غلامه ، فسأله هل تأكل من التمر ؟ فأنكر ، ولكنه لم يقنع ووضعه تحت الاختبار ، وأتى بقطنة بيضاء ، وطلب منه أن يمضغها لعلمه أن لعابه يحتفظ بلون البلحة وطعمها ، فلما أخرجها وجدها صفراء فيها من لون البلح ، ووجدها حلوة فيها من طعم البلح فتيقن أنه سارق وأنه يخونه فطرده .

ونحن لا نظن أن هذه الحالة تجعلنا نصفه بالسرقة فقد حدث أن رجلا ذهب إلى سيدنا عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — يشكوه من أن غلامه يسرقه فطلب إقامة الحد ، ولما جيء بغلامه وشرح حاله مع سيده من أنه مقتر لا يكفيه ، عفا عنه " عمر " وهدد السيد بأنه لو عاد إلى ذلك لقطع يده هو ، تلك عبقرية " عمر " حملت هذا البخيل حملا على أن لا يحرم غلامه من شيء ، وكان ينبغي أن يكون هناك حاكم يشبه عمرا يهدد هذا السيد بأنه إذا حرم غلامه قطعوه ، لم يفعلو ذلك وتركوا

الرجل يطرد غلامه من العمل ليتشرد ، فهو قد خرج يحمل على كتفيه تهمة السرقة والخيانة فلم يجد إنسانا يقبله عاملا عنده بعد ذلك .

وفى النص بعض الكلمات ذات الإيحاءات الفنية كقوله :

تمار : بالتنكير ولا أظنه مجهولا عند الراوية ، ولكنه قصد إلى عدم الإفصاح عنه حتى لا يعرضه للفضيحة والنفور ، وهذا هو دأب الجاحظ في كتاباته فهو لا يعنيه الشخص ، ولكن الذي يعنيه هو الحادثة ليبرهن على الفكرة التي يعرض لها .

يختار : تفيد القلق والاضطراب؛ لأنه لم يطمئن إلى تصرف معين ، ويبدو أنه يقضي وقتا طويلا في الحانوت فيجوع ، وصاحب الحانوت لم يسمح له بالأكل وهو يحتاج إلى الأكل فأصبح بين أمرين : إما أن يمضي به الجوع متألما ، أو يمد يده ليسد جوعه بتمرة أو أكثر فيقع تحت طائلة العقاب من صاحب الحانوت ، وهكذا أصبح لا يدري ماذا يفعل فأصيب بالحيرة .

فدعا بقطنة بيضاء : دعا تفيد أنه طلب من غيره أن يأتيه بالقطنة البيضاء ، ولعله كان في ذلك يلتمس منه الشهادة عندما طرد الغلام من العمل ، هذا ما أفادته كلمة دعا ، ثم قوله قطنة بيضاء : حرص على وصفها بالبياض لكي يظهر فيها ما يجده في العجين ، وأول شيء هو اللون ، ولما وجد اللون تغير ، والطعم

احلو لي تيقن من كذب غلامه ومن سرقته وخيانته فطرده بعد إقامة الحجة عليه .

الحرص على التدبير والاقتصاد :

ومن ملامح المجتمع الفارسي في البخلاء الحرص على التدبير وعدم التبذير والاقتصاد في النفقات ومحاولة الاستفادة من كل شيء ، ولعل منبع كل ذلك الحرص الشديد ، يقول الجاحظ: وكان أبو سعيد المدائني ينهي خادمته أن تخرج الكساحة من الدار ، وأمرها أن تجمعها من دور السكان ، وتلقيها على كساحتهم ، فإذا كان في الحين بعد الحين جلس وجاءت الخادم ومعها زبيل ، فعزلت بين يديه من الكساحة زبيلا ، ثم فتشت واحداً واحداً فإن أصاب قطع دراهم وصرة فيها نفقة والدينار أو قطعة حلي ، فسبيل ذلك معروف وأما ما وجد فيه من الصوف ، فكان وجهه أن يباع إذا اجتمع من أصحاب البراذع ، وكذلك قطع الأكسية ، وما كان من خرق الثياب ، فمن أصحاب الصينيات والصلاحيات ، وما كان من قشور الرمان ، فمن الصباغين والدباغين ، وما كان من القوارير فمن أصحاب الزجاج ، وما كان من نوى التمر فمن أصحاب الحشوف ، وما كان من نوى الخوخ ، فمن أصحاب الغرس . وما كان من المسامير وقطع الحديد ، فللحدادين ، وما كان من القراطيس فللطراز ، وما كان من الصحف فلرؤس الجرار ، وما كان من

قطع الخشب فللأكافين ، وما كان من قطع العظام فللوقود . وما كان من قطع الخزف فللتنانير الجدد ، وما كان من اشكنج فهو مجموع للبناء ، ثم يحرك ويثار ويخلل ، حتى يجتمع قماشه ، ثم يعزل للتنور ، وما كان من قطع القار ، بيع من القيار ، فإذا بقي التراب خالصاً ، وأراد أن يضرب منه اللبن للبيع وللحاجة إليه ، لم يتكلف الماء ، ولكن يأمر جميع من في الدار أن لا يتوضئوا ولا يغتسلوا إلا عليه ، فإذا ابتل ضربه لبنا .

وكان يقول : من لم يعرف الاقتصاد تعرفي فلا يتعرض له. (١)

والنص لا يحتاج إلى تعليق ، فإذا كان هذا شأن الرجل الموسر الذي يمتلك الأموال والعقارات ذات الطوابق المتعددة والجواري والخدم ويأمر وينهي إذا كان هذا حاله فما الظن بعوام الشعب ؛ إنه لا يترك شيئا إلا وحاول الاستفادة منه ، حتى الكساحة يستخلص منها ما علق بها مما قد يدر عليه المال ، حتى إذا لم يتبق شيئا سوى التراب أمر جميع من في الدار من الأهل والسكان ألا يتوضئوا أو يغتسلوا إلا عليه ، فإذا ابتل التراب بالماء مجانا ضربه طوبا لبنا ثم قام ببيعه ، ويدعي بعد ذلك أنه خبير بالاقتصاد ، كلا إنه خبير ضليع في الحرص المبالغ فيه .

---

(١) البخلاء ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

ويذكر الجاحظ أن هذا الرجل : ذهب من ساكن له شيء كبعض ما يسرق من البيوت ، فقال لهم : اطرحوا الليلة ترابا ، فعسى أن يندم من أخذه ، فيلقيه في التراب ، ولا ينكر مجيئه إلى ذلك المكان ، لكثرة من يجيء لذلك . فاتفق أن طرح ذلك الشيء المسروق في التراب ، وكانوا يطرحونه على كناسته ، فرآه قبل أن يراه المسروق منه ، فأخذ منه كراء الكساحة . (١)

إنها حيلة للكسب فالرجل استفاد مما ألقى على كناسته من كناسات الآخرين دون أن يكلف أحداً جمعها ؛ ولما عثر الرجل الذي فقد منه الشيء على ما سرق منه أخذ صاحب الدار منه كراء الكناسة ، فالحرص على كسب المال بشتى الطرق وكل الوسائل ديدنه ومذهبه .

ومن النماذج الدالة على مدى حرص الفارسيين وتدبيرهم الشديد وميلهم للاقتصاد المبالغ فيه ما ذكره الجاحظ في هذا الخبر حيث يقول : حكى أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، عن جاره المروزي : أنه كان لا يلبس خفا ولا نعلا إلا أن يذهب النبق اليابس لكثرة النوى في الطريق والأسواق ، قال: ورآني مرة مصصت قصب سكر ، فجمعت ما مصصت ماءه لأرمي به ، فقال : إن كنت لا تنور لك ولا عيال لك ، فهبه لمن

---

(١) البخلاء ص ١٤٣ .

له تنور وعليه عيال . وإياك أن تعود نفسك هذه العادة في أيام خفة ظهرك ، فإنك لا تدري متى يأتيك العيال .[1]

ومن هذا القبيل أيضا ما ذكره الجاحظ حيث يقول ، قال سجادة ، وهو أبو سعيد سجادة : ناس من المراوزة إذا لبسوا الخفاف في الستة الأشهر التي لا يزعون فيها خفافهم ، يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر ، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة أشهر مخافة أن تنجرد نعال خفافهم أو تنقب .[2]

ولاشك أن هذا الحرص مبالغ فيه ، وخرج عن مضمونه الهادف ، فالذي لا يلبس الخف أو النعل خوفا من كثرة النوى في الطريق ، فمن أدراه فلربما أصابه مكروه في قدميه كلفه ما هو أكثر من ثمن نعله ، ولربما كلفه حياته ثمنا لذلك إذا ما لدغه ثعبان أو شيء آخر من هوام الأرض ، لكن ما الذي دفعهم إلى ذلك ؟ لا شيء سوى البخل .

سماع النصيحة :

ومن ملامح المجتمع الفارسي في البخلاء سماع النصيحة وإجابة الداعي للخير والإنفاق في سبيل الله ، لكن الإنفاق يشوبه عدم الإخلاص ، يقول الجاحظ : وسمع رجل من المراوزة الحسن

---

[1] البخلاء ص ٢٨ .

[2] المصدر نفسه .

وهو يحث الناس على المعروف ويأمر بالصدقة ، ويقول : ما نقص مال قط من زكاة ، ويعدهم سرعة الخلف ، فتصدق بماله كله فافتقر ، فانتظر سنة وسنة ، فلما لم ير شيئا بكر على الحسن، فقال حسن ما صنعت بي ؟ ضمنت لي الخلف ، فأنفقت على عدتك ، وأنا اليوم مذ كذا وكذا سنة أنتظر ما وعدت ، لا أرى منه قليلا ولا كثيرا ، هذا يحل لك ؟ اللص كان يصنع بي أكثر من هذا ؟[1]

فهذا المروزي كثير المال استمع يوما لنصيحة الحسن البصري فاستجاب لدعوته إلى التبرع والإنفاق ، فتبرع بماله كله وانتظر الخلف سنة بعد سنة كما وعد الشيخ ، لكنه لم يظفر بشيء ، ولما افتقر وطال انتظاره أسرع بالذهاب إلى البصري معاتبا ومعنفا لعدم تحقق ما وعد به من سرعة الخلف ، قائلا له : اللص ما كان سيصنع بي أكثر مما صنعته أنت . هل هذا يحل لك.

وهو لا يدري أن الخلف قد يكون مؤجلا ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، لكن المروزي أنفق من أجل أن يعجل له بالخلف في الدنيا ، فكأنه أنفق ليربح أموالا طائلة ، فالحسنة بعشر أمثالها ، وكأنها تجارة مادية دنيوية ، فهو أنفق كل ماله طمعا في الربح الوفير والثراء الفاحش ، لكن خاب

---

[1] البخلاء ص ٢٧ .

طنه " فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى " [1] فهو أنفق طمعا في سرعة الخلف والثراء لا من أجل الثواب والأجر فاستحق الحرمان .

الإلتزام بآداب الطعام

ومن ملامح المجتمع الفارسي في البخلاء الالتزام بآداب المؤاكلة ، كما أمر بذلك ديننا الحنيف ، قال الجاحظ : قال : إبراهيم بن عبد العزيز كان راشد الأعور يقول : لم أنتفع بأكل التمر قط إلا مع أهل أصبهان ، فالأصبهاني لا يتخير وأنا أتخير ، كما أنه يقبض القبضة ولا يأكل من غيرها ، ولا ينظر إلى ما بين يديه حتى يفرغ من القبضة ، وهذا عدل ، والتخير قرفة وجور ، لا جرم أن الذي يبقى من التمر لا ينتفع به العيال إذا كان قدام من سيتخير . وكان يقول : ليس من الأدب أن تجول يدك في الطبق ، وإنما هو تمر وما أصاب . [2]

أنها لصفة كريمة ، وخصلة حميدة عرفت وشاعت عن أهل أصبهان ، فهم فى الأكل ملتزمون ، يأخذ المرء منهم القبضة من التمر أو غيره مما هو أمامه ولا يأكل من غيرها ولا ينظر إلى ما بين يديه حتى يفرغ من القبضة التي بين يديه . وهذا من آداب الطعام ، فديننا الحنيف يأمر المرء بأن يأكل مما يليه . ولذلك ما

---

[1] فتح الباري ١ / ٩ .

[2] البخلاء ص ١٩٦ .

انتفع راوي الخبر بأكل التمر إلا مع أهل أصبهان لاتصافهم بهذه الصفة ، وهذا الخبر يشير إلى التأدب بآداب الطعام وحسن المؤاكلة ، فالقناعة كنز لا يفنى ، كما أن الجشع في المؤاكلة صفة بغيضة ومذمومة في كل المجتمعات الإنسانية .

وبعد فتلك هي أهم ملامح المجتمع الفارسي التي تلمسناها من ثنايا قصصهم قي كتاب البخلاء ، ذلك الكتاب الذي يستهوى القارئين ، ويجذبهم إلى العكوف عليه لدراسته وتحليله ، واستكناه ما فيه من قيمة أدبية وفنية ، وهو يحوي موضوعات وقصصا أخرى كثيرة غير التي قدمتها في هذه الدراسة ، فالدراسة قاصرة على ما فيه من أخبار الفرس ونوادرهم وملامح مجتمعهم .

والجاحظ كاتب عظيم ومفكر بارع ، وأديب فذ ، لأدبه سمت معروف ، وخصائص مميزة وقد خالف كثيرا من الكتاب عندما أقلع عن السجع واتخذ أسلوبه أسلوب الترسل ، واستقصاء المعنى ، وتوليد الفكرة من الفكرة حتى لا يدع فيها زيادة لمستزيد ، وقد رأينا ذلك بوضوح في قصته التي أوردها عن أبى سعيد المدائني ، الذي سأله أحمد المكي عن سبب اتساخ قميصه ، فكانت بداية استرسل بعدها الجاحظ حتى جعل المدائني يفترض أشياء قلما تجول بخواطر الناس .

هذا وقد تلمست قدر الجهد من خلال قراءتي لنوادر الفرس التي وردت في البخلاء عن ظلال وملامح اجتماعية للفرس غير التي كان يهدف إليها الجاحظ ، وألف من أجلها كتابه البخلاء ، فكتاب البخلاء موضوعه البخل والتحذير منه ، والسخط على البخلاء والتشنيع عليهم ، حتى تظهر عوراتهم وتنكشف ، ومن ثم يندفع القارئين إلى النفور منهم ، لأن البخل جريمة شنعاء في حق الشخص وفي حق المجتمع .

وقد كشفت الدراسة عن بعض الملامح الاجتماعية للفرس ، وذلك من خلال النوادر التي أوردها الجاحظ في سياق حديثه عن البخل والبخلاء ، ومع ذلك فقد كشفت هذه النوادر في ثناياها عن سلوكيات أخرى معيبة وبغيضة للفرس قد تفوق ـ أحيانا ـ البخل قبحا وشناعة ، وهذه السلوكيات لاحظها الجاحظ وشاهدها من الواقع المعاش الملموس .

والسمة الغالبة على الملامح الاجتماعية للفرس في البخلاء تكشف عن سلوكيات معيبة لهم ، ولا غرابة في ذلك ، فهذه الملامح وردت في سياق الحديث عن بعض البخلاء ، وماذا ننتظر من سمات البخلاء إلا السلوكيات البغيضة والصفات الذميمة .

ولا يعني ذلك أن المجتمع الفارسي خلا من السلوكيات الحسنة أو الصفات الحميدة أو أن هذه الملامح التي أشرنا إليها

هي كل ما للفرس من ملامح اجتماعية ، كلا لاشك أن للفرس صفات أخرى وملامح اجتماعية قد تكون إيجابية أو سلبية لكنها لم ترد في البخلاء وبالتالي لم تدخل ضمن إطار الدراسة ، والمنوط بها كشف ملامح المجتمع الفارسي في كتاب البخلاء للجاحظ .

ولعلي بهذا العمل المتواضع أكون قد أسهمت في إبراز جانب مهم من جوانب إبداعات الجاحظ المتنوعة .

وما توفيقي لا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مصادر البحث ومراجعه

١ ـ أبو عثمان الجاحظ . أحمد الطويلي . الشركة التونسية للتوزيع ط ١/ ١٩٨٣م .

٢ ـ أبو عثمان الجاحظ . د / محمد عبد المنعم خفاجي . دار الطباعة المحمدية . القاهرة .

٣ ـ البخلاء . الجاحظ . تحقيق د / طه الحاجري . ط دار المعارف . الطبعة السادسة ١٩٨١م .

٤ ـ البخلاء للجاحظ وتصويره للمجتمع العباسي . د/أحمد منصور نفادي ط ١ / ١٩٨٤م .

٥ ـ البيان والتبيين . الجاحظ . مكتبة الخانجي . القاهرة ط٥/ ١٩٨٥م .

٦ ـ تاريخ الأدب العربي . أ / حمد حسن الزيات . دار المعرفة بيروت ، لبنان ط ٤ / ١٩٩٧م .

٧ ـ تاريخ الأدب العربي . العصر العباسي الأول . د/شوقي ضيف . دار المعارف بمصر .

٨ ـ تيارات ثقافية بين العرب والفرس . د / أحمد الحوفي القاهرة ١٩٨٦م .

٩ ـ الجاحظ . د / أحمد الحوفي . دار المعارف بمصر ط / ١ / ١٩٨٠ م .

١٠ ـ الجاحظ . حياته وآثاره . د / طه الحاجري . دار المعارف بمصر ط ٢ / ١٩٦٩م .

١١ ـ الجاحظ ومجتمع عصره . د / جميل جبر ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٨م .

١٢ ـ الحيوان . الجاحظ . ط ٢/١٩٦٥م ط الحلبي .

١٣ ـ دراسات في الأدب المقارن . د / محمد عبد المنعم خفاجي دار الطباعة المحمدية . القاهرة .

١٤ ـ ضحى الإسلام أ / أحمد أمين ط /١٠ / ١٩٨٢م . مكتبة النهضة المصرية .

١٥ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب . ط دار المعرفة بيروت .